كلمة الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية

أيها السيدات والسادة

لقد فقدت العربية فارسًا من فرسانها

كان يرتع في سهولها ووديانها مُتنسّمًا عبير معانيها

سابرًا أغوارها للوصول إلى كنوزها

يلتقط لآلئ ألفاظها ويَستهين بالصعاب للوصول إلى مُبتغاه من دقةٍ في التعبير وتحديدٍ لما بين الألفاظ من فروق وفُرَيْقات.

كيف أختصر في دقائقَ قليلةٍ ما عرفته عن الدكتور عبد الكريم اليافي في مجمع اللغة العربية، وما سمعته من طلابه على اختلاف مشاربهم.

فمنهم من عرفه أستاذًا في علم الفيزياء، ومنهم من عرفه أستاذًا في الفلسفة، إذ إنه بذل عطاءه في مجالاتٍ لا يربط بينها سوى عبقريته الفذة.

فقد بدأ عام ١٩٤٧ تدريسَه الجامعي أستاذًا مساعدًا في علم الاجتماع وعلم الجمال، وفلسفة العلوم والتصوّف، واستمر حتى عام ١٩٧٤ في كلية الآداب، وقد شَرُف به كرسي الأستاذية سنة ١٩٦١.

إلا أن الدكتور اليافي لم يلبث أن شبَّ عن طوق كلية الآداب لتُفيد من علمه مراكزُ علميةٌ أخرى؛ إذ انتُدب لتدريس علم الاجتماع والمنطق في كلية الشريعة، وعلمِ الاجتماع وعلمِ النفس في كلية الطب وفي كلية الصيدلة، وتاريخِ العلوم ومنطقها في كلية العلوم، والإحصاءِ الحيوي في كلية التجارة.

ثم عاد رحمه الله إلى منطلقه الأصلي، الذي كان قد حاز فيه إجازة في العلوم (رياضيات، كيمياء، فيزياء) سنة ١٩٤٠ في السوربون في باريس، إذ طُلب إليه أن يحاضر في أصول تدريس الفيزياء والكيمياء في دار المعلمين العليا.

وتكامل بعدئذ عطاؤه الفكري بإنجاز تلك المؤلفات التي أبرزت أهميةَ علم الاجتماع الحديث من خلال تدريسه في جامعة دمشق، بعد أن انكبّ على صوغ المصطلحات اللازمة للتعبير عن خفايا العلوم الاجتماعية وتشعباتها المرتبطة بالمدارس الأوربية الجديدة كالبنيوية والوظيفية. فنشر كُتبه النفيسة «تمهيد في علم الاجتماع» وكان أضخم بكثير من أن يكون تمهيدًا، و«دراسات اجتماعية ونفسية»، و«المعجم الديموغرافي»، و«فصول في المجتمع والنفس» و«معجم مصطلحات التنمية الاجتماعية والعلوم المتصلة بها»، وجميعُها مؤلفات غميسة أصيلة في موضوعات تلقّى أسُسها خلال دراسته في باريس، وأسبغ عليها مسحةً من عبقريته ليربطها بواقع المجتمع العربي.

لقد كان الدكتور اليافي دائم التفتّح على أمور ثقافية كانت تتقاطع عناصرها في ذلك النصف الثاني من القرن العشرين، وكان هذا يستحثّه لضبط معطياتها في كتب تفتَح أبواب فهم تلك العلوم.

لم يُسعِفني الحظ بأن أكون في عداد تلاميذ الدكتور اليافي في فرع من الفروع الهامة التي تولى تدريسها، لأضيف شهادتي إلى ذلك الإجماع الصادر عن طلابه، في إكبار مخزوناته المعرفية، وتقريظِ قُربه من طلابه؛ كما أن مسارِيَ التدريسيَّ في جامعة دمشق لم يتقاطع في أي مرحلة مع مسار ذلك الأستاذ الكبير.

إلا أنني واجهته أول مرة حين كلّفني أستاذي الكبير الدكتور حسني سبح همه الله رئيسُ المجمع حينذاك، أن أزور الدكتور اليافي برفقة زميلي الدكتور هيثم الخياط، لنحاول إقناعَه بقبول ترشيحه إلى عضوية مجمع اللغة العربية. وقد بدا لنا لدى زيارته في داره ما يتميز به من التواضع ودماثة الخلق، وقد ضح لنا أنّ ممانعتَه في ذلك تدور حول تخوُّفه من أن يكون عملُه المجمعي معطلاً لمنطلقاته في مجالات العلوم المختلفة، وقد كان عندها في خضم إنتاج علمي غزير.

وقد نجحنا في مهمتنا وتم انتخابه عضوًا في مجمع دمشق عام ١٩٧٦، وتزيّن به مَفرِق المجمع. ثم عرفته في مجمعنا باحثًا لا يعرف الكلال، يحمل فكرًا منفتحًا على مسارات العلوم، وكاتبًا أغنى عددًا كبيرًا من الموضوعات ببحوثه وتحقيقاته، وإنسانًا مرهف الحس يغلب عليه تواضعٌ عجيب، وخُلُق رفيعُ القيم يجعله ليّن العريكة في المناقشات التي تدور بين الأعضاء، فهو لا يُصرّ على رأيه ولكنّه لا يتراجع عنه.

وقد كان الدكتور اليافي عماد لجنة ألفاظ الحضارة التي نسعى فيها إلى إيجاد مقابلات عربية لتلك الألفاظ الأجنبية التي طرحتها الحداثة على عالمنا الشرقي.

ولاشك بأن معرفتَه الجيدةَ للفرنسية والإنكليزية كانت تدخله إلى صلب معنى اللفظ المطروح، فيسهل عليه عندها اغتراف اللفظة العربية المناسبة من ذاكرته، ملأتها سنين من المطالعة في حقول واسعة من تراثنا، حافلة بالألفاظ المتقاربة المتمايزة.

ومن الأمثلة الساطعة على هذا المخزون اللغوي مقالةٌ نشرها في مجلة المجمع سنة ١٩٨٢ بعنوان «الحمدُ والمدحُ والشكرُ والثناءُ والرضا وفروقُها في اللغة والتراث»(١).

وكان يجلس صامتًا يُصغي إلى مناقشة زملائه أعضاء اللجنة لمصطلح من المصطلحات، وإذا به يتناول معجمه المفضّل، وهو متن اللغة، ليستقصي جذرًا من جذور اللغة تبادرَ إلى ذهنه، ثم يطلع علينا بحروف جديدة تنتظم في مصطلح يتطابق مع المعنى المطلوب. ومن الحلول الجميلة التي ابتدعها أنه حين كنا نناقش تسميةً عربيةً للإنترنت، عاد في ذهنه إلى تسمية دارجة إذ ذاك لعالم الحواسيب المترابطة، وهي الشبكة العنكبوتية، فاقترح أن الإنترنت هو الشابكة لعناصر الشبكة العنكبوتية، وقد أقر المجمع تلك التسمية بعد أن كان قد أقر الحاسوب والناسوخ.

فهل نبوغُ الدكتور اليافي في مختلف مجالات اللغة العربية وعلومها مرتبطٌ بنشأته في حمص، حيث دخل مدارسها الرسمية، وكان يلازم الشيوخ القائمين على تدريس اللغة والفقه والتفسير والبلاغة في المساجد؟

(١) مجلة المجمع ج٤ مجلد ٥٨.

أم أن ذلك نتيجةُ جهدٍ شخصي لم تعطّله السنوات السبع التي قضاها في فرنسا طيلة الحرب العالمية الثانية؟

لاشك أن الدكتور اليافي كان يتقن عددًا من اللغات إلى جانب ما نعرفه من إتقانه للغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وهذا ما يثبت وجود ملكة لغوية فذّة لديه.

فهل اهتمامه مثلاً بالشعراء الفرس ينمّ على معرفة جيدة للغتهم؟

لقد نشر بحثًا بعنوان «شيراز وابنها سعدي»[٢]، في مجلة التراث العربي التي استمر رئيسًا لتحريرها سنواتٍ عديدةً، كما نشر بحثًا عن حافظ الشيرازي[٣] يتساءل فيه عن أسرار الإبداع في شاعريته، فهل درس ذلك مترجمًا أم بلغته الأصلية ؟

وقد امتد شغفُه بالشعر إلى محمد إقبال[٤]، وإلى جدلية أبي تمام[٥]، وأصدر كتابًا بعنوان «شموع وقناديل في الشعر العربي»[٦]، يتلمّس فيه أرقّ المعاني والرموز. ويروي طلابه أنه كان يبدأ محاضرته أو يختمها ببضعة أبيات من الشعر.

ولا شك بأن تكوينه الفلسفي بقي مهيمنًا على اهتماماته، إذ إنه نشر عدة مقالات في موضوعات فلسفية، منها «قصة إبراهيم الخليل بين ابن عربي

(٢) التراث العربي تموز ١٩٨٥.

(٣) التراث العربي تموز ١٩٨٩.

(٤) التراث العربي نيسان ١٩٨٦.

(٥) طباعة بغداد ١٩٨٠.

(٦) مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤.

والفيلسوف الألماني كيركغارد»[٧]، ومنها «أجوبة الشيخ الرئيس ابن سينا عن مسائل أبي الريحان البيروني»[٨]، و«سيرة الإمام أبي حامد الغزالي»[٩]، ومقالةٌ عن أبي نصر الفارابي[١٠].

لقد كان الدكتور اليافي أولَ من درّس علم الجمال في جامعتنا، إذ كان يحمل شهادة من السوربون بعنوان فلسفة الجمال وعلم الفن، ولذا ألّف كتابه «دراسات فنية في الأدب العربي»، واتسع في نظرته إلى تحرّي الجمال في نصوص من التراث العربي، فنشر بحثًا بعنوان «فن الحدائق»[١١].

وهناك ناحية لا يعرفها عن الدكتور اليافي سوى قلةٍ من أصدقائه وطلابه، وهي ميوله الصوفية. فقد كانت أطروحته لشهادة الدكتوراه دراسةً نفسية وجمالية لشعر ابن الفارض. ليست صوفيةُ اليافي تلك التي انفردت بها بعض الحركات الصوفية المعروفة، كالنقشبندية والشاذلّية والسعدية، بل إنه كان يرتوي من منابع الصوفية الأولى، وقد درّس نصوصًا لروادها كالحلاج والمحاسبي والجنيد، كما أنه درّس كتاب «فصوص الحِكَم» لابن عربي.

ولا ننسَ في خضم استعراضنا لتلك الآثار الجليلة التي تشهد للدكتور اليافي بعبقريةٍ فذّةٍ شاملةٍ لنواحٍ ثقافيةٍ هامة، أنّ له مساهماتٍ كبيرةً في

(٧) التراث العربي العدد الرابع ١٩٨١.

(٨) التراث العربي العدد ٥ ، ٦ ١٩٨١.

(٩) التراث العربي كانون الثاني ١٩٨٦.

(١٠) التراث العربي كانون الثاني ١٩٨٨.

(١١) التراث العربي تشرين الأول ١٩٨٩، كانون الثاني ١٩٩٠.

موضوعات علمية متفرقة. فقد ألَّف كتابًا يتناول الفيزياء الحديثة والفلسفة عام ١٩٥١، وهو يعود فيه إلى المنطلقات الفلسفية التي تبقى قابعةً وراء كلِّ محاولة لفهم نظام الخليقة.

وأتبعه عام ١٩٨٧ بمقالة عنوانها «الحس المشترك والتراث العربي ونظرية النسبيّة»[١٢]. كما أن له كتبًا هامة ألفها منذ مطلع عمله التدريسي: في «تقدم العلم» ١٩٦٤، وفي «علم السكان» ١٩٥٩ وغيرها.

ومن مقالاته العلمية أيضًا «علماء العقاقير النباتية في الحضارة العربية الإسلامية»[١٣]، ومقالةٌ فقهية علمية عنوانها «ضبط النسل في رأي الغزالي» قدمها في مهرجان الغزالي عام ١٩٦١.

وله بحوث أصيلة في التاريخ منها مقالة بعنوان «ابن خلدون ومنهجه العلمي الحديث»[١٤]، يتطرق فيه إلى مقارنة جريئة بين منهج العالم العربي ومنهج المؤرخ الفرنسي المعاصر فرنان بروديل، الذي أطلق نظرة جديدة على كتابة التاريخ البشري موضحًا ارتباطاته بالمؤثرات المناخية والمشكلات البيئية.

وترجم كتاب «العلم والنظرة الإنسانية»[١٥]، لمؤلفه الفيلسوف الألماني شرودنكر الحائز شهادةَ نوبل، وهو كتاب فلسفي يتطرق إلى تعريف الحياة وعلاقتها بالطبيعة.

---

(١٢) التراث العربي تشرين الأول ١٩٨٧.

(١٣) التراث العربي ١٩٨٥.

(١٤) التراث العربي نيسان ١٩٩٢.

(١٥) مطابع دمشق ١٩٦٤.

إن هذه النظرةَ الخاطفةَ إلى إنتاج الدكتور عبد الكريم اليافي لا يمكن أن تعطيَ لنا ما يتجاوز فكرة سطحية عن تلك الأعماق التي وصلت إليها فطنتُه وأنضجتها ثقافته الواسعة.

رجل استوعب الأسس العلمية والفلسفية للحضارة الحديثة وتمثّلها ليقدمها ناضجة واضحة لطلابه.

إنه صاحبُ عقل فريد قادر على الانتقال من دقة العلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الإحصاءات الحيوية، إلى أعماق الفلسفة الحديثة، وإلى الترنم بالشطحات الصوفية للحلاج وابن الفارض.

لقد اكتسبت جميع مؤلفاته طابعًا خاصًّا من الدقة والأناة في توضيح وتميزت بانبساط ألوانها على طيف واسع يكاد يجمع معظم الاهتمامات الإنسانية في العصر الحديث، مع نظرة فاحصة إلى ما تمثّله الحضارة العربية الإسلامية في مجالات العلم. وقد أطلق عنوان «سمات العلم والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية» على إحدى مقالاته(١٦).

لقد كان الدكتور اليافي عاشقًا للغة العربية يصول ويجول بين رياض جذورها واشتقاقاتها وتراكيبها، يُسبغ عليها مكانةً فريدة بين اللغات لما وجده فيها من ثراء حقيقي في المفردات، وسلاسة في الأسلوب، ودقة في التعبير. وكل ذلك مبني على معرفة كاملة للغات أوربية أخرى، لم يقبل أن يُحلّها موقعًا تكون فيه نظيرةً للعربية في طاقاتها وإمكاناتها. وهو القائل: «إن اللغة العربية سجل الحضارة التالدة ومطيّة الحضارة الطارفة».

(١٦) التراث العربي تشرين الأول ١٩٨٨.

فهل هذا كله يجعل من الدكتور اليافي أديبًا يصبّ أدبه في علوم شتى أم أنه رجل علم وهبه الله مقدرةً علمية نادرة تُتيح له تفهّم العلوم المختلفة وإعطاءها قالبًا أدبيًّا عربيًّا يقرّبها إلى أذهان طلابه ؟

فلو جُمعت انطباعات كل فرد من الذين عرفوه، أو عاصروه، أو اطلعوا على إنتاجه العلمي، لبرز منها تمثال حي لعبقرية علمية وأدبية في آن معًا.

فهو العالم الذي صمغ الدراسات العلمية بدمعته، وقدم لمواطنيه علومًا لم تكن معروفةً قبله، وهيأ لها المصطلحات التي تحتاج إليها ليمكن تدريسها باللغة العربية.

وهو مؤسس علم السكان في نطاق العلوم الاجتماعية، وقد وصلت شهرته إلى المجال العالمي فكان خبيرًا لدى الأمم المتحدة في هذا المضمار.

وهو أول من أسس لتدريس علم الجمال في جامعتنا.

وإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما نعرفه عن شغفه بالشعر، الذي أولاه نظرة تقييمية فنية تتحرى عناصر الإبداع ومقوماته، عُدْنا عندئذ إلى تأكيد الطابع الأدبي في شخصيته.

لقد تلاقت في فكر اليافي مسارات عديدة وتغصّنات أنبتتها اللغة العربية، تفرّعت وتفتّحت عنها أزهار مختلفة الألوان أعقبت ثمرات ناضجةً في علوم تراثية وعصرية. فليست اللغة العربية لغة شعر وبيان فحسب، وليس الاهتمام بها يعني الغوصَ في دقائقِ صرفها ونحوها.

فاللغة العربية جوهرة مصقولة يشعُّ النور من وُجيهاتها فتستنير به العلوم والآداب ويسمو به الشعر إلى آفاق لا متناهية.

أيها السيدات والسادة

عذرًا إذا كنت لم أستطع أن أنقل إليكم سوى غيض من فيض عبقرية هذا المفكر المبدع، الذي أدهشنا بمساره العديد المسالك، الكثير الشعاب، مسلكٍ يختبئ في كل منعطف منه ما يستدعي إعجابنا من إنجازات وخبرات.

رحم الله فقيدنا الدكتور عبد الكريم اليافي، فإنه عالم يضاهي بسعة معارفه أولئك الذين اشتهروا بمداعبة أوتار الفنون وهم جادّون في متابعة العلوم، فهو عالم عصري له جذور تراثية عميقة.

لقد كان الدكتور اليافي هرمًا من المعرفة تتوج قمّته روح شاعرية حساسة مرهفة.

فاسمحوا لي في ختام مسعاي إلى إبراز مميزات ومآثر فقيدنا أن أقول فيه ما قيل في أبي القاسم الجنيد ذلك الصوفي الكبير:

«ما رأت عيناي متكلّه، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه».